الحلقة (٧)

انتهيت في الحلقة السابقة بالحديث عن شمول الشريعة وتكاملها واستيعابها لجوانب الحياة كلها وأيضا هناك تكامل بين العقل والوحي والتجربة،

لأن لدينا في الحياة جانبان: جانب فني وجانب تشريعي.

- الجانب الفني: مصدره التجربة ومنظمه العقل، **العقل وسيط بين التجربة والنتيجة أو القانون الذي يُصاغ بناء على التجارب،** وطريق التعرف على سنن الله في خلقه يتم بواسطة التجربة والعقل.

- والجانب الآخر الجانب التشريعي (الوحي): و طريق التعرف على أحكامه **بوسيطٍ هو العقل** الذي يسمع كلام الله فيعيه ويستنبط منه ويجتهد في الوصول إلى مرادات الله سبحانه وتعالى، فكان العقل وسيطاً في الجانب التشريعي ووسيطاً في الجانب الفني، وبهذا يرتفع التناقض عندنا فلا نقع في هذا الجانب الذي يُفرط في رفض الواقع وسننه ويتجاهلها، ولا في الذي يُفرط فينفي الشريعة ويرى أن الوحي أو الدين قاصر على العلاقة بين العبد وربه، فإذا كانت هذه المشكلة قد نشأت في مجتمعات أخرى ..

وعُرفت فيما بعد بالمنهج العلماني: الذي يرى أن الفصل في الدنيا وتسييرها مردُّه إلى العقل والتجربة، ولا دخل للدين فيه.

نشأ هذا المنهج في أوروبا وامتد امتداد الحضارة الغربية وهيمنتها، وهي تحاول فرض أنموذجها هذا على العالم أجمع..

وأما في الإسلام فلا تناقض بين العقل والتجربة والشرع، وإنما هو التكامل، فإن الشرع يبين سنن الدين، ويوجه العقل والتجربة لاكتشاف سنن الخلق بالإشارة إلى بعضها، حتى يُراعي الإنسان في اجتهاده وفي حركته ونظره الأمور كلها بتكامل وتوازن ..

ومن ثم ما يسمى بالنهج العلماني لا يمكن أن يصدق على وضع الإسلام، لأنه لا يتجاهل الدنيا كما قلت ولا يتجاهل السنن الكونية (سنن الخلق)..

سواء في مجال الطبيعة أو الكون، أو في مجال الإنسان، بل إن الوحي والقرآن يؤكد أن الكشوفات العلمية وأن الصيرورة في هذا الجانب ستؤدي إلى الشهادة بأن القرآن هو الحق، وذلك لأن نتائج الكشوفات والوصول إلى السنن في المجال الكوني والإنساني توافق سنن الله سبحانه وتعالى، وتشهد بأن القرآن هو الحق.. فإذن الخطأ جاء من هذا التطرف:

إما رفض الجانب الدنيوي ..

وإما الاكتفاء بالجانب الدنيوي،

فكلاهما نهج خاطئ وكأنهما في عُرف هؤلاء وهؤلاء جزيرتان منفصلتان لا تلتقيان، في حين أن النهج

الصحيح الشرعي يُكامل بينهما ويصل بينهما، فمصدر التجارب هو الخلق، تجارب على الخلق تستهدف الوصول إلى سنن الفعل الإلهي، سنن الخلق، و الشرع يهدي الناس لسنن الدين، وسنن الدين متطابقة مع سنن الخلق، فلا يمكن أن يناقض قول الله عز وجل فعله، فإذا أخذنا بذلك خرجنا من أزمة هذا التطرف، ومن أزمة الميل مع جانب دون جانب، وعرفنا نقطة الضعف والجهل لدى كل من قبل بهذا ورفض ذاك..

ولكن ينبغي لفت الانتباه إلى أن المنهج الإسلامي مُفارِقٌ المنهج العلماني من حيث أنه يرد الأمر كله لله سبحانه {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}،في حين أن النهج العلماني يرفض الاستناد إلى أمر الله سبحانه ويكتفي بالاستناد إلى الخلق..

وقد شبّه أحد المفكرين الأوروبيين الحضارة الغربية بطائر حلّق بجناح واحد ولم يحلّق بالجناحين معاً، الحق أنه لا طائر إلا بجناحين، ولا يمكن الاكتفاء بجناح واحد لتحقيق الكمال.

❖ **التفصيل في بعض النظم في الإسلام**

ننتقل إلى تفصيل بعض النظم في الإسلام، وسنبدأ بالحديث عن :

النظام الأخلاقي أو النظام الخُلُقي: إن الحديث عن كل نظام بمفرده لا يعني أن بين النظم فواصل، وإنما النظم في الإسلام بينها تواصل،فحينما ندرسها كأساس مفصل فذلك من أجل الفهم والتعرف عليها، أو على عناية الشريعة بهذه الجوانب على حدة، ولكن ذلك لا يعني الانفصال، لأن نظم الإسلام كلها تقوم على الاعتقاد واستهداف مرضاة الله سبحانه وتحقيق مصالح العباد الآجلة والعاجلة واعتبار العدل في هذه المصالح، أو بمعنى آخر هذه النظم تستهدف تحصيل المصالح ودفع المفاسد، هذا عن النظم بعامة ومن ضمنها نظام الأخلاق الذي يتداخل مع النظم الأخرى، حينما نتناول غيره من النظم سنرى أن للنظام الخُلُقي حضوراً في الأنظمة، لأن الشريعة في حقيقتها كلها أخلاق أو تخلّق وسلوك وسير إلى الله سبحانه سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو على المستوى الاجتماعي.

١-النظام الخُلُقي:

تعريفه: النظام سبق التعريف به والخلقي نسبة إلى الخُلُق، والخلقي نسبة إلى الخلق ..

وقد عُرّف **الخُلُق في اللغة** بأنه الطبع والسجية والسيرة والهدي.

وعرف بأنه هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر ودون حاجة إلى الفكر.

وعرف بتعريف آخر مجموعة من الصفات والمعاني في النفس والتي تتحكم في الأفعال من حيث الحُسن والقُبح.

فأما بالنسبة للتعريف الأول فقد اقتصر على المعدن (**هيئة راسخة في النفس**) هذا المعدن الذي تصدر

عنه أفعال الإنسان، **فمثلا**: من كان صفته الشجاعة تصدر عنه وتُلحظ عليه ، من كان صفته حب الخير ظهرت عليه المبادرة إليه، ومن كان صفته التعلق بالدنيا ظهرت هذه الصفات عليه، فالخلق جانب منه معدن الإنسان، قابلية موجودة لدى الإنسان، ولذلك تفاوت الناس في الأخلاق بالرغم من تقاربهم أحيانا، في الخلق نجد الفرق فيه بين الأب وابنه، بين الزوجة وزوجها، وبين الإخوة وبين الأخوات من أب وأم واحدة، لأن لكل فرد معدن، ولما سُئل عليه الصلاة والسلام: (أي الناس خير؟ قال -لما استوضحهم كما أشرت مرة ومرة عن سؤالهم ماذا يريدون ولما أوضحوا مرادهم وأفصحوا عنه- قال: (**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**) فالخيار في الإسلام مشروط، ليس بمجرد أن الإنسان خيار في الجاهلية، لأن خياره في الجاهلية بحسب معدنه، بحسب قابلية نفسه، وهذه القابلية تُحَد بالثقافة، بالمحيط الاجتماعي، وبالتالي قد يقلل من تأثيرها، قد يحول دون ظهورها، قد يحرفها عن مسارها، ولذلك قال المصطفى عليه السلام: (**خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**)

فالفقه الحقيقي ليس العلم الذي في الرأس ويحويه فكر الإنسان ويحفظه ويعيه، وإنما الفقه وعي القلب الدافع إلى العمل، الخوف من الله سبحانه وخشيته والإقبال عليه والإعراض عن ما سواه، فقه الدين وليس فقه الأحكام وحدها،

فقه الدين كاملة، وهذا هو الفقه الذي يُشار إليه هنا لأنه المؤثر في السلوك، ففقه الأحكام بمفرده قد لا يؤثر في السلوك،

كم من أناس يعلمون الحلال والحرام ولكنهم يخالفون ذلك، ولكن هناك من الناس من أنعم الله عليه بالإيمان والخشية ومراقبة الله سبحانه، هذا هو الفقه الحقيقي، قال: (**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**)، لأن المعدن الطيب إذا وجد المحيط الطيب أظهر النتيجة الطيبة، كالبذرة الصالحة الممتازة إذا وُضعت في الأرض الخصبة جاء منها الخير الكثير، والبذرة الضعيفة حتى لو وُضعت في أرض خصبة لا يكون نتاجها كنتاج البذرة الجيدة الطيبة،

فإذن التعريف الأول :لاحظ معدن الإنسان الذي يتحكم في تصرفاته.

والتعريف الثاني : أضاف بُعد المعاني، والمعاني ليست مُكتسبة من النفس، فهي مجبولة على صفات، ولكن هذه المعاني مُكتسبة من خارج النفس، وقد يكون اكتسابها من الشرع، وقد يكون اكتسابها من المجتمع، وقد يكون من خلال قراءات الإنسان ودراسته وتعلمه، بحسب المصدر، المهم أنها خارجية، فإذا اكتسبت الصفة المستقرة في النفس بأن آمن بهذا الشيء وضرورة العمل به، وكانت هذه المعاني حاكما لسلوكه وتصرفه، أصبحت كالخلق له، لأنها تحكمت في باطنه.

الخلق صورة الإنسان الباطنية، والسلوك صورة الإنسان الظاهرية، هناك اتصال و انفكاك بين السلوك والأخلاق، فقد يكون الإنسان في باطنه شيء ويظهر عليه شيء مخالف لما في باطنه، وقد يكون

ظاهره كباطنه، وقد يكون باطنه خير من ظاهره، فالمسألة تختلف، مثلا الذين نافقوا نفاقا اعتقاديا يظهر عليهم الإسلام والعمل الظاهر به وبشعائره، ولكنهم قد أبطنوا الكفر فخالف الباطن هنا الظاهر، والظاهر حسن ولكن باطنه مُرّ وسيء، و قد يكون كما قلت الباطن والظاهر يجتمعان على السلوك الحسن.

هذا بالنسبة لتعريف الخُلُق، إذن لما أضاف أنها التي تتحكم في الأفعال من حيث الحُسن والقُبح، عرفنا أنها معاني من خارج النفس، لأن أصل التحسين والتقبيح هو الشرع، والعقل قد يُحسّن ويقبح، ولكن **هذا التحسين والتقبيح لا يمكن أن يكون على سبيل الاستقلال، لأنه لا يمكن أن يصل إلى الحسن المطلق والقبح المطلق، إنما هو حسن نسبي وقبح نسبي**، وقد يُحسّن العقل شيئا في مجتمع ونجد العقل في مجتمع آخر يذمه، وهكذا يختلف التحسين والتقبيح النسبي الذي مرده سواء العقل أو التجربة ونحوه، تختلف بحسب المجتمعات وباختلاف التجارب والثقافات، فلذلك قد نرى تحسينا ولكنه كما قلت يكون تحسينا مذموما، كما نرى في بعض المجتمعات مثلا إباحة الخمور، وهي مما يُزيل العقل ويضره، فهذه الإباحة لها هي لو لم تكن حسنة لديهم لما أباحوها فنظروا إلى أمور بموجبها استحسنوها،

وفي الإسلام مثلا ذُم هذا الشيء ونبه الله عز وجل إلى أن ذمه له آت من مفاسده الكثيرة: {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}،

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }.

فإذن تحسين الشرع وتقبيحه هو الأصل، ولكن كما قلت قد تكون هناك مصادر وهذا ما سنشير إليه للتحسين والتقبيح غير الشرع ولكن يجب أن يُرد الأمر في ذلك إلى الله والرسول.

- مصادر الأخلاق أو معايير الأخلاق

ما المعايير التي تتحكم في الأخلاق؟ التي تبين حسنها من قبيحها ؟

هناك معايير في الإسلام يُقاس بها الحُسن والقُبح ..

- فالمعيار الأصلي الأساس المُطلق الحاكم على كل المعايير هو:

شرع الله عز وجل، هو الوحي، والعقل يهتدي بالوحي في اكتشاف الحسن والقبيح، كما أنه يهتدي بالتجربة في معرفة الحسن والقبيح في نطاق المحسوس، فهكذا إذن سيكون هناك معايير مُطلقة أو معيار مطلق حاكم على كل المعايير في الإسلام، وهناك معايير نسبية مردها إما إلى العقل الذي يستنبط السنن الكونية ويعرف من خلالها الحسن والقبيح في التجارب البشري.